الفصل الأول
الطريق إلى دمشق

في حين كانت الأحداث في الماضي ثابتة وغير متغيرة نجد أن لأحداث الشرق المتعاقبة قدرة على التغلب على جهود الكاتب الرامية إلى توثيق تاريخ المملكة العربية السعودية التي سبق نشرها في كتاب لي صدر في عام ١٩٥٥م، أي بعد مضي شهرين تماماً على وفاة الملك العظيم الذي لا تزال فترة حكمه تزودنا بعناصر مشوقة لقصة طويلة. تجدر الإشارة هنا إلى أنه يمكن إسدال الستار على الفصل السعودي من تاريخ الجزيرة العربية حتى قبل أن يتسنى لناشر هذا الكتاب أن يبدأ في عمله. وينطبق هذا أيضاً على إعدادي لمذكرات حياتي الخاصة التي بدأت في هدوء وسكون الصحراء، حيث تنشقت عبق ذلك الهدوء لفترة طويلة من الزمن، وتمتعت بقدر كبير من السعادة والاستمتاع. عليّ أن أشير هنا إلى أن أيامي التي قضيتها في الصحراء كانت معدودة، بمعنى أن سجل أحداث تلك الأيام كان يجب أن يختتم في خضم المقارنة بين سعادة الحرية ومعاناة المنفى. أقصد بذلك التحرر من النظام الاجتماعي القاسي الذي قبلته طوعاً والذي انهارت ركائزه تحت وطأة الثروة التي تدفقت ببركة من الله على أهالي الجزيرة العربية والتي جاءت ثواباً على الفضائل التي سادت في الأيام الخوالي. وحيال هذه الحالة أجد لزاماً عليّ أن أبدأ قصتي مع الأخذ في الحسبان الخواتم التي ستساعد القارئ على تخيل مسرح الأحداث الذي دارت عليه أحداث شخصيتي لفترة طويلة.

obeikandl.com

شهدت الجزيرة العربية لسنوات عدة تغيرات سببتها التأثيرات الخارجية، كما سببها تدفق بعض الناس عليها من المناطق المتاخمة لها والذين قدموا بسبب الشائعات التي دارت حول ثرواتها المدفونة. كان هؤلاء القادمون مهرة في فنون المغالطة والخداع، إذ كان قصدهم منها إرضاخ المارد الذي فرض على تلك القفار السلامة والسكينة. كانوا يحاولون تقييده بسلاسل من ذهب، كما حاولوا أن يستغلوا فضيلته لتحقيق مآربهم ومكاسبهم.

أخذت حرارة الصحراء المتغيرة تؤثر عليّ بشكل لا يطاق، لكن ما أثار اشمئزازي كان التبذير والفساد. علاوة على أنهم استاؤوا من روابط الصداقة التي كانت تجمع بيني وبين الملك الذي غالباً ما كان يختلف في الرأي معي، إلا أنه لم يمنعني أبداً من حرية التعبير عن الرأي. وحسب معرفتي يمكن أن أقول بأن الملك عدّ ذلك بمثابة لجام فرضه على وزرائه، وكنت خلال فترة حياته أتمتع بحصانة تقيني شر هؤلاء الوزراء. لكن ضميري كان حياً حيال الالتزامات المفروضة على واجبات الضيف والتي أملت علي المنحى الذي كان يجب أن أتبعه وسط معضلة كانت آخذة في التأزم بشكل متزايد.

كنت على مدى ثلاثين عاماً ممتدحاً لحكم ابن سعود، كما أنني أشدت بكل ما تبنته تلك الحكومة دون أن أخالف ضميري في ذلك. قام بعض الناس بالتمعن في حكومة ابن سعود وعلى مدى تلك السنوات شجبوا تعصب الإخوان ووصفوه على أنه انبعاث لشدة غير مألوفة. والآن هاهي الدولة المسالمة المستقرة التي أنشأها ابن سعود بالحرب والجهاد قد أصبحت مهددة بفنون السلم التي استخدمتها فئة من الناس لم يسبق لها أن حملت السيف، بل انجرفت وراء إغراءات الرخاء الاقتصادي والنجاح. لكن جاء الوقت للتحدث جهاراً. لأن السكوت في مثل هذه الحالة يمكن أن يكون بمثابة انحياز وتخل عن الواجب. لذا قررت أن أجهر بصوتي مهما كانت النتائج.

جاءت فرصتي مع التحضير لكتاب «اليوبيل الذهبي» الذي نشر في عام ١٩٥٢م. أعدت تلك المناسبة للاحتفال بمناسبة مرور خمسين عاماً على جلوس ابن سعود على العرش. وفي ذلك الكتاب وبنبرة معتدلة بعض الشيء بدأتُ حملتي ضد الارتخاء المتزايد آنذاك، وضد التبذير والفساد الذي أفضى على مدى سنوات[1] عدة للإنقاص من قدر المنجزات العظيمة التي تحققت على أيدي رجل عظيم. إلا أن كاهله أصبح الآن مرهقاً بالسنين التي قضاها في تشييد الدولة ولم يعد يستطيع تقدير وضبط التقلبات التي يصعب التنبؤ بها في أرض قاد شعبه فيها بكل حكمة.

وفي النهاية حظي كتابي بردود فعل مختلفة: فكان الجزء الأكبر من الرأي العام مؤيداً لمثل تلك المصارحة، ومؤيداً لفضح الجوانب السيئة التي كانت بحاجة إلى من يكشف الستار عنها. أما ردة الفعل الرسمية على أعلى المستويات فكانت مضادة وصريحة. لم أستطع أن أوصل إدانتي الكاملة لمثل تلك الجوانب بالشكل السريع المطلوب؛ لأن عدد من كان يعرف اللغة الإنجليزية في الجزيرة العربية كان قليلاً. ولكن مع مرور الأيام قام محافظ سابق لمكة - يقيم في مصر- بنشر ترجمة لذلك الكتاب، وكان ذلك أول كتاب يترجم إلى العربية من بين العديد من الكتب التي ألفتها عن المملكة العربية السعودية[2]. قدم ذلك المحافظ إلى المملكة العربية السعودية حاملاً معه اثنتي عشرة نسخة بتجليد فاخر ليقدمها إلى الملك وإلى

(١) سنلاحظ من بداية الكتاب وحتى نهايته أن المؤلف لم يقبل بالتطور السريع الذي شهدته البلاد في أواخر حكم الملك عبدالعزيز وفي عهد الملك سعود، وأنه يفضل المحافظة على الوضع القديم ويخشى عليه من التطور المادي الذي نتج عن ظهور النفط وعائداته التي وجهت للتطوير.

(٢) قام بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية مصطفى كمال فايد ونشر عام ١٩٥٥م، وكانت ترجمة كثيرة الأخطاء مع السقط الكبير فيها، وطبع باسم «الذكرى العربية الذهبية»، ثم عكفت مكتبة العبيكان على ترجمته وسوف يتم نشره في هذه السلسلة قريباً.

أشخاص آخرين مهمين. وكانت النتيجة أن فُرض حظر فوري على إدخال النسخة العربية إلى المملكة علماً بأنه كان قد وُجِّه تحذير إلى باعة الكتب في جدة بعدم ترويج النسخة الأصلية المكتوبة باللغة الإنجليزية. وبالرغم من ذلك حققت تلك النسخة مبيعات رائعة كانت تتم بشكل سري.

بدأت المعركة واستمرت ببطء وبثبات إلى أن بلغت ذروتها في الطائف في شهر أيلول من عام ١٩٥٣م وفي فترة كان الملك فيها على فراش الموت. لم يعد الملك يظهر في الجلسات العامة بشكل متكرر؛ وفي عصر يوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) لم يخرج الملك إلى الناس، وفي ذلك اليوم -أيضاً وكما هي العادة- انضممت إلى جلسة حضرها الأمراء والوزراء في مجلس شورى الملك بالقصر. وكانوا -على ما يبدو- يناقشون موضوع كتابي، فقام عبدالله شقيق الملك بانتقادي وسانده في ذلك جمال الحسيني وهو ابن عم مفتي القدس السابق. كان جمال الحسيني هذا أسيراً في الحرب العالمية الثانية، وكان -بطبعه- معادياً جداً وكارهاً لكل ما هو أجنبي. وبدافع الاحترام لعمهم التزم الأمراء الصمت علماً بأن بعضاً منهم استمتع بما أثاره عبد الله من مضايقات علنية. أما الرسميون الآخرون فكفوا ألسنتهم عن الكلام إدراكاً منهم لنزاهة انتقادي. أحرز عبد الله بعض النقاط في نقده لبعض الأخطاء الطفيفة التي وردت بين طيات كتابي، وبالتحديد نجح في الهجوم الشامل الذي شنه على أحد فصول كتابي الذي تناولت فيه موضوع فلسطين. وبخصوص هذا الموضوع لا يمكن أن يكون في مثل هذا الجمع من الناس إلا رأي واحد. نسوا أو أنهم رفضوا أن يعترفوا بأن الملك نفسه سبق وأن وصف مراراً أسلوب جامعة الدول العربية في معالجة مشكلة فلسطين بأنه غير ملائم. لكن الأمير تجنب الخوض في قضايا الخلاف الرئيسة بيني وبين أصدقائي والتي تجلت في

التخبط السياسي الذي أفضى إلى خسارة العقبة في السنوات السابقة، كما أفضى إلى خسارة فلسطين نفسها، ذلك على الرغم من التفوق العددي الملحوظ للعرب الذين حقق بعض قادتهم ثروة طائلة من جراء تزويد جيوشهم بأسلحة فاسدة. وهنا قلت لهم إنهم سيخسرون البريمي؛ لأنهم ببساطة لا يقتنعون بأنه يمكن الفوز بالقضايا العادلة بالأساليب الشريفة وحدها[1]. هزهم وصدمهم ذلك الطرح، لكن كلمتي التالية كانت بمثابة الضربة القاضية التي فرضت السكون على المجتمعين، وأدت في النهاية إلى فض الاجتماع. قلت لهم: «إنني مستعد للرحيل عن بلدكم إذا رغبتم في ذلك، لكن الشيء الوحيد الذي لا يسعني فعله هو أن أبقى هنا وألتزم الصمت وأنا أشاهدكم تدمرون الإنجاز العظيم الذي حققه الملك». وأثناء تفرق المجتمعين قلت لجمال الحسيني: «لا تنس أنني اتبعت الوهابية[2] عندما كنت أنت وأصدقاءك المتحضرين تشجبون ذلك المنهج، وتصفونه على أنه بدعة».وكانت تلك آخر مرة أحضر فيها مجلس شورى ذلك الملك الذي كان يحتضر.

في اليوم الثاني من شهر أكتوبر (تشرين أول) شاهدت الملك لآخر مرة في مجلسه الذي عقد في عصر ذلك اليوم، وفي اليوم التالي توجهت إلى مكة. وفي السادس عشر من ذلك الشهر توجهت إلى الطائف حيث كان الملك يتماثل للشفاء إثر انهيار جسدي أصابه. وبعد يومين غادرت الطائف، متوجهاً إلى مكة. وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه عدت مجدداً إلى الطائف لإنجاز أعمال تتعلق بقصر الأمير عبدالله. أما في السادس والعشرين فقد عدت إلى مكة، وفي اليوم التاسع من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سمعت خبر وفاة الملك، وكان خبراً مؤلماً لكنه متوقع. في مساء ذلك اليوم دفن الملك في مقبرة الرياض بجوار قبر والده

(١) يلاحظ هنا أن عاطفة المؤلف كانت قوية ومؤثرة وهو يعرف الظروف السياسية المحيطة بمثل هذه القضايا خارج البلاد.

(٢) يقصد المؤلف هنا المنهج السلفي الصحيح والذي يوصف خطأ بأنه الوهابية.

وشقيقته. عندها شعرت بأن زمام أمور القضية التي كرست الجزء الكبير من حياتي لخدمتها قد تداعى وانهار، ولم يعد لي أي دور لأقوم به في الحكومة الجديدة. إن الصدمة الناجمة عن وفاة الملك شلت الجزيرة العربية وأذهلتها لفترة من الزمن. وفي تلك الأثناء أعربت كافة دول العالم عن إجلالها واحترامها وإعجابها لذكرى رجل عظيم، كما قدمت تعاطفها لوريثه في الحكم متمنين له الحكم المديد المزدهر. لكن سرعان ما بدأ ذلك الانشداه بالتراخي.

قررت أن أبقى معظم الوقت في مكة باستثناء بعض الزيارات القصيرة التي قمت بها إلى جدة، حيث كان مقر إقامة الملك، ومكثت هناك إلى أن بدأ الملك برنامجه في زيارة مختلف مناطق المملكة، إضافة إلى زيارة بعض الدول المجاورة. كان الأمير فيصل في تلك المرحلة ولياً للعهد ونائباً لرئيس الوزراء، فترأس جلسة مجلس الوزراء القديم لمناقشة مهمة وضع خطة جديدة للأمور التي تتعلق بمستقبل حكم البلاد. وفي اليوم السابع من شهر مارس (آذار) من عام ١٩٥٤م أي بعد مضي أربعة أشهر على وفاة الملك، تم رسمياً افتتاح جلسة مجلس الوزراء الجديد في الرياض، وأصبح الأمير فيصل آنذاك رئيساً للوزراء. عُقدت تلك الجلسة وسط احتفال صاخب، ووسط الكثير من المراسم. كان من الصعب معرفة الشكل الذي يختلف فيه الجهاز الحكومي الجديد عن الجهاز القديم، مع استثناء واحد هو أن الشخصية البارزة للجهاز الجديد ويدعى عبد الله السليمان الذي كان يشغل منصب وزير المالية، كان قد جرد من معظم صلاحياته وأعماله. لكن حقيقة وفاعلية الأمور تتضح عندما توضع على المحك. ومجلس الوزراء على النحو الذي كان عليه لم يكن سوى هيكلة صيغة القرارات التنفيذية العليا، وأصيبت البلاد بحالة ركود وتأخرت ميزانيتها عن عامها الهجري الموافق للعام الميلادي ١٩٥٤ /

١٩٥٥م. إذ بلغت عائدات ونفقات تلك الميزانية حوالي ٣١ مليون جنيه إسترليني. الحكومة لم تنشر أي أرقام تتعلق بالمعاملات المالية للدولة. ومما هو مؤكد أنه لم يتم على مدى ذلك العام تنفيذ أي من المشاريع الضخمة المتعلقة بالأشغال العامة. ولم يسمح بنقل أية مبالغ من عائدات العام الجديد إلى العام الثاني؛ لأن ميزانية ذلك العام ستظل غير معلنة إلى أن ينتهي ذلك العام تقريباً. كنت قد أجريت بعض الحسابات التي استخلصت منها أنه خلال السنوات الثماني -أي ما بين عام ١٩٤٧م و ١٩٥٥م - كان تحت تصرف الحكومة ما يقارب من ٦٠٠ مليون جنيه إسترليني، واليوم لا يوجد منه إلا المبلغ الزهيد.

دعوني الآن أعود لأتكلم عن وضعي الشخصي إذ حدث وأن حضرت -خلال زيارة طويلة للرياض- حفل تدشين المجلس الجديد، ولكن لم أشارك أبداً في أي مجلس من مجالس الدولة، بل راقبت نشاطات تلك المجالس بقلق متزايد.

في الواقع لم أشارك في أي نشاط من نشاطات الدولة خلال السنوات الثلاث الأخيرة التي سبقت وفاة الملك، إذ كان ولي العهد في وقتها يدير شؤون الدولة بصفته الوصي على العرش نيابة عن والده. وأود أن أضيف هنا -ولو كان هذا فقط لإزالة عدم فهم شائع- أنني لم أشغل في أي وقت من الأوقات خلال فترة حكم ابن سعود منصب مستشاره الخاص، كما لم يسبق لي أن استلمت منه أو من حكومته أي راتب شهري، وذلك لا بصفة مستشار ولا بأي صفة أخرى[1]. كنت دائماً صديقاً له ولا شيء أكثر من ذلك. حتى وإن حدث وقبل أية وجهة نظر

(١) ليس الأمر صحيحاً على الإطلاق، فقد أشار أكثر من مرة في كثير من كتبه أنه كان يتلقى أحيانًا بعض الأموال والدعم من الملك عبدالعزيز مباشرةً، أو بصفة دعم لمشاريعه المتعددة ورحلاته.

تطوعت في عرضها عليه كونها نصيحة خالصة، فإن ذلك أمر خاص به. ومهما يكن واقع الحال فإن امتعاضي وخيبة أملي الناجمة عن الطريقة التي كانت تدار بها الأمور خلال الأشهر الأولى من ممارسات الحكومة الجديدة شجعتني على كتابة مقالة سبق وأن طلبتها مني جريدة الشؤون الخارجية التي تصدر في واشنطن. وفعلاً تم نشرها في عددها الذي صدر في شهر أبريل (نيسان) من عام ١٩٥٤م. فوجئت بأنه كان لتلك المقالة أثر قوي لدرجة أن نسخاً منها أرسلت بالتصوير الفوتوغرافي إلى المنظمات الأمريكية الموجودة في المملكة العربية السعودية، وكان أول علم لي بنشرها فعلياً عندما عرضها علي السفير الأمريكي في جدة. في تلك الأثناء أبرق السفير السعودي في واشنطن إلى حكومة بلاده مستغرباً من مضمون تلك المقالة.

كانت تلك هي الحركة الثانية التي قمت بها في سياق حملتي في المملكة العربية السعودية، وبالتأكيد لم يلق ذلك العمل الترحيب الجيد في أوساط الحكومة السعودية، كما حدث بيني وبين الأمير عبد الله العديد من الجدل حول ذلك التصرف. وعلى أية حال تحدث الأمير عبد الله عن مشكلة الرشاوى، لكنه ادعى بأن تلك الممارسات تحدث في أوروبا بشكل طبيعي. وقال: إن وزير المالية الفرنسي نفسه يقبل الرشاوى. وباعتبار أنه لم يكن بمقدوره أن يقدم أدلة ضد ذلك الشخص فقلت له: إنني لا أقبل مثل تلك الاتهامات العامة. وعندما اجتمعت بالملك خلال فترة الغداء قال لي: إنه كان غاضباً علي، وإنه من الأفضل أن أتحدث معه عن تلك الأمور شخصياً بدلاً من نشرها على الملأ. وكانت إجابتي أنني لم أكن لأحظى

بمثل تلك الثقة الشخصية على النحو الذي حظيت بها من قبل والده[١]. وكانت تلك نهاية ذلك الموضوع، ولم يترتب على الأمر أكثر من مجرد علامة سوداء اقترنت مع اسمي. وهنا لا بد أن أقر بأن الملك سعود عاملني باعتبار بالغ الأهمية.

كنت من الرجال الذين عاصروا والده، بينما كان الملك من الجيل الذي اكتسب فكره وأخلاقه من المنهج الإسلامي.

كنت في تلك المرحلة قد انتهيت من إعداد كتابي عن تاريخ حياتي في المملكة العربية السعودية، وكانت دار النشر المحدودة (ارنست بن) على وشك أن تنشره ضمن سلسلة كتبها الخاصة بـ"دول العالم الحديث". وكنت في ذلك الكتاب قد أسهبت في النقد، وكان ذلك أكثر بكثير مما تعرضت له في مقالاتي السابقة. استدعت حادثة وفاة الملك أن أكتب مقدمة تتعلق بدلائل تقدم ونجاح الحكومة الجديدة. أتممت تلك المقدمة خلال الزيارة الطويلة التي قمت بها إلى إنجلترا خلال فصل صيف ذلك العام، وسردت فيها بشكل مفصل أوجه الاختلاف بين الحكومة القديمة والحكومة الجديدة، خاصة فيما يتعلق بقضايا كان ينظر إليها في السابق على أنها بالغة الأهمية لنجاة وخلاص أي شعب من الشعوب. كانت تلك في الواقع بمثابة البون الشاسع الذي يمتد من المنهج السعودي في الثلاثينيات وحتى أيام المجتمع العلماني الحديث.

(١) يعكس هذا شعور المؤلف بالتغيّر تجاهه بعد وفاة الملك عبدالعزيز مما دعاه إلى الانتقاد والمبالغة في وصف الأوضاع.

ووفق المقـاييس الأوروبيـة كنت حـريصاً على أن أبـين أنه لم يكن هناك شيء خاطئ بخصوص النظرة الجديدة للأمور، مع استثناء واحد هو أنني كدت أن أروع المحاربين الأشداء الذين تدين لهم الدولة السعودية بالفضل لوجودها.

تم نشر الكتاب في يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٥٥م. وأسهم ذلك الكتاب بدرجة كبيـرة في تحول مجرى الأحداث اللاحقة. وبالمناسـبة تجدر الإشارة هنا إلى أن المستـشار القانوني لوزارة الخـارجية السعـودية شخصـياً قام بمراجعـة الكتاب، وكانت تلك المراجعة لصالح مجلة الرياض. وفي سـياق تعليقه على الكتاب كتب المستشار الملاحظة التالية:

«على الرغم من المغالطات التي يمكن أن نجـدها في الكتاب، وعلى الرغم أيضاً من كل الأشياء التي يمكن أن تقال في سيـاق النقد، وعدم الاتفاق مع الآراء المعبر عنها أقول: بأنه لا مجـال للشك بأن روح الإخلاص للسعودية تشع من كل سطر من سطور الكتاب. والحق يـقال أيضا بأن الكتـاب يعد من الكتب التامـة المتوازنة والجادة التي كُـتبت عن المملكة العـربية السعـودية ونشرت حـتى هذا التاريخ. إن مجرد كـتابة الفصل الأخـير والمقدمة لهـذا الكتاب لهو إنجاز جـيد بالنسبة للـسيد فيلبي».

ومن سوء حظ مـراجع ذلك الكتاب حدث أن نـشرت ملاحظاته وكـان الثمن الذي دفعه مراجع الكتاب أن خسر وظيفته التي كان يكسب منها راتباً مجزياً، كما تم نقله من منصبـه ليـشـغل منصبـاً بسـيطاً في وزارة المـاليـة. إن تلـك هي نتيجـة مأساوية لمثل ذلك العـمل النادر الذي حاول فيـه صاحبه أن يكون شـريفاً وصادقاً.

تم تجاهل كافة الأمــور التي انتقدتها وتعرضت لهــا، علماً بأن الملك أشار -في مناسبــة أو في مناسبتين للولائم الشـعبية التي أقـيمت في القصر- إلى الانتـقادات اللاذعة التي صــدرت عني بحق الحكومة. وقلت له: إن غايتي الوحيــدة هي إنقاذه من الوقــوع في كــارثة. وأضفت بأنــي قضـيت حـياتي في دراسـة تاريخ البـيت السعــودي، وفي دراسة كافة مـراحله التي أوصلت المملكة إلى حالتـها الراهنة من السمو والعلا، أي من أيام الجهل ومروراً بفـترة الإصلاح الديني العظيم وحتى وقتنا الحاضـر الذي يسمى بالعصـر الحضاري، وهذا بدوره لا ينقص من قــدر ماضيــها المجيد. إن مرارة الفقر والعوز في الماضي كانت بالغة لدرجة أنها تقاوم كل مقومات كــبح النفس المرعبــة وسط الخـيرات التي تزدهر فـي أيام الحاضـر. وباتت مأسـاة الإمبراطورية السعودية في العـصور الوسطى تتكرر، لكن على نطاق أضيق، وكما أن الجزيرة العربية أسهمت في وجود تلك المأساة، نجدها مكنتها من التخلص منها.

أصبـحت الآن الفجوة بيني وبين أصــدقائي القدامى تتـسع، ولو لم يكن الأمر يتعلق بالتزامي تجاه الشركة البريطانيـة التي كنت أمثلها في المملكة العربية السعودية لما اسـتمـريت في نضــالي الميؤوس منه. في واقع الأمــر مــرت فتـرة طويلة على الاقتراح الذي سبق وأن تقدمت به للشركة البريطانية والذي طلبت فيه عدم رغبتي في تجديد عقدي مـعها. كان المفروض أن ينتهي عقــدي في شهر يوليو (تموز) من عام ١٩٥٦م، وفي شـهر ديسـمبـر (كانون أول) من عام ١٩٥٤م تقـدمت بطلب الاستـقالة الفورية بسـبب المشاكل الجادة والخـلافات في الرأي التي كـان لها صلة بعقود مهمــة متنوعة كنت قد أديت دوراً مهماً في تأمـينها لتلك الشركة. على أي حال لم يُستجب لطلبي وتـرك أمر الاستقالة قيد الظروف ليـتم على ضوئها تقرير مصيري.

قبلت من حيث المبدأ دعوة لزيارة الظهران بصفتي ضيفاً على شركة الزيت العربية الأمريكية؛ وذلك للاطلاع على التقدم الكبير الذي تحقق إثر الزيارات التي سبق وأن قمت بها إلى حقول النفط في عام ١٩٤٠م وفي عام ١٩٤٨م.

وكان المطلوب مني في تلك الزيارة أيضاً أن أدلي بحديث لموظفي الشركة حول تجربتي في الجزيرة العربية. أخبرت الشركة بأنه يمكن لي أن أقوم بتلك الزيارة خلال الأسبوع الأخير من يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٥٥م، وعندما حان الوقت توجهت إلى الظهران في مقصورة فارهة من عربة سكة الحديد السعودية. انطلق القطار وسط الامتداد الشاسع لطريق الصحراء التي سبق لي وأن سلكته على ظهر جمل في عام ١٩١٧م. ولكن كانت وجهتي آنذاك من الظهران إلى الرياض. وطويت تلك المسافة على ظهر الجمل في عشرة أيام، ولكن القطار الحديث طواها هذه المرة في عشر ساعات. لم يطرأ أي تغيير على تلك المناطق الصحراوية سوى وجود معالم القضبان الحديدية لسكة القطار وظواهر أعمال التنقيب عن النفط وآبار الماء التي كانت الشركة تقوم بحفرها.

ولدى وصولي إلى الظهران أُخبرت بأن علي أن أتحدث في خمسة مؤتمرات وندوات أعدتها الشركة في مناطق مختلفة يسكن بها موظفوها. وهنا يمكنني الادعاء بأن استفادتي كانت أكبر من الاستفادة التي حققها من استمع إلى محاضراتي خلال الأسبوع القصير الذي قضيته بين أصدقائي القدامى والجدد والذين يكفيهم بأنهم كانوا مصدر الرخاء والتقدم الذي كانت المملكة العربية السعودية تنعم به في ذلك الوقت. إن استخراج وتسويق النفط شكلا في الواقع

جزءًا من الخدمات التي قدمتها الشركة بدافع الإيثار لشعب هذا البلد[1]. وشملت تلك الخدمات النواحي التربوية والتكنولوجية العامة، ومجالات التطور وتحسين مصادر المياه، والنشاطات المتعلقة بمحاربة وباء الملاريا، والخدمات الصحية في كافة أنواعها، والسكن والتقدم في مجال الأبحاث الزراعية وبناء الطرق، وتطوير الميناء، ووسائل النقل، وإنشاء سكة الحديد، وما شابه ذلك. كانت شركة أرامكو في واقع الأمر إمبراطورية مهيبة قدمت للحكومة السعودية العديد من الخدمات البالغة الأهمية، ولولا الشركة لأرجأ الرسميون في الحكومة تنفيذها إلى ما شاء الله، ناهيك عن ذكر عجزهم وعدم مقدرتهم في الجوانب الفنية. لم تكن تلك الأمور لتتحقق دون جهود الأمريكيين الحثيثة، بما فيها جهود الشركات الأمريكية للبناء والتعمير، وجهود بعض الشركات المتخصصة مثل: بوينت فور، وفورد، والفريق الزراعي الذين كانوا جميعهم موجودين على الساحة ولديهم رغبة في إنجاز العمل. الواقع أنه لا يمكن توجيه أي نقد إلى سجل الأعمال الأمريكية، وعلينا أن لا ننسى الجهود الجبارة التي قاموا بها من أجل صيانة الخدمات المتعلقة بالملاحة الجوية السعودية التي تمت على مدى العشر سنوات الماضية. هذا؛ علماً بأن تلك الجهود لم تكافأ بالشكل الأمثل بسبب الملاحظات الطفيفة، والإهانات الصغيرة المزعجة التي تعلقت بمسببات الراحة التي كان موظفو الشركات الأجنبية مهتمين بها. لكن لا بد أن نتوجه بالشكر إلى الملك الراحل الذي أظهرت إرادته الطيبة مدى تقديره للأعمال التي كانت تنجز لصالح هذا البلد.

(١) قدمت شركة أرامكو هذا بدافع مصلحتها في الدرجة الأولى، إضافة إلى أن هذه الأعمال التي قامت بها ما هي إلا جزء من اتفاقيات بينها وبين المملكة، وعلى هذا فلا يصح أن تنسب إلى الشركة وحدها، على أنه مما لا شك فيه أن إسهامها في المجالات التنموية الأخرى كان له الأثر الواضح في تطوير المنطقة الشرقية.

اتسم الحديث الذي أدليت به في المؤتمرات بالظهران بالصفة الشمولية مع تأكيد بالغ على النهضة الاجتماعية التي بدلت معالم الجزيرة العربية في تلك الأيام. كما أكدت على التوجه الدنيوي التام الذي طرأ على بلد كان في يوم من الأيام بلداً نظرياً وغير عملي يرتكز ويدار بالدرجة الأولى على مبادئ إسلامية متشددة حدث وأن ترسخت سيادة هذه الدولة على شريعة ذلك الدين. وأصبحت الأيام الحاضرة تشهد القليل من تلك المبادئ النظرية[١].

لم يفرق مجتمع أرامكو الموحد بين لون أو عرق: لاحظت أن الجمهور الذي قدم لسماع محاضراتي كان من جنسيات مختلفة بما فيهم العديد من السعوديين وأشخاص من دول عربية أخرى. تشرفت بالتحدث إليهم وأعربت لهم عن أفكاري بمنتهى الصراحة، إذ قارنت صورة الحاضر مع صورة الأمس، كما أشرت إلى مخاطر الحضارة الحالية المهجنة التي لا يمكن للعرب أن يتعاملوا معها على نحو معادل لحضارة الغرب.

وبما كان طبيعياً هو أن الإشاعات المتعلقة بالملاحظات التي أبديتها في محاضراتي سبقتني في الوصول إلى الرياض.. فعندما وصلت إلى هناك في الثامن والعشرين من شهر فبراير (شباط) استشعرت هالة من البرود. تفاقمت حدة تلك الهالة بفعل فشل بعض الأعمال والمفاوضات المتعلقة بقصر الأمير عبدالله، إذ كانت قد أنجزت نيابة عن الشركة التي كنت أمثلها وهي شركة ميتشل كوتس المحدودة وبجهود مهندس بريطاني ذائع الصيت ويدعى السيد أندرسون. وبعد

(١) يخلط المؤلف هنا بين ما حدث من تطور في البلاد السعودية وما تعنيه العلاقة بين الدولة والدين. فالمملكة العربية السعودية قامت أساساً على مبادئ الإسلام ولا تزال، واتخذت ذلك منهجاً واضحاً في كافة تعاملاتها.

مرور ستة أشهـر من الصبر والكد أصبح من المستحيل التـفاوض مع الأمير. وبعد يوم من وصولي إلى الرياض غادر ذلك المهندس متوجـهاً إلى بريطانيا مخلفاً وراءه جـواً من الإحبـاط والجـدل إثر رحيلـه، أثر بشكل ملحـوظ على التطورات التي حدثت على مدى بضعة أيام.

ويجب علي أن أشير هنا أنه قبل توجـهي إلى الظهران، -وهو أمر اعتدت أن أحـصل من أجله على إذن من الملك- حـدث أن وصل السـفـيـر البـريطاني إلى الرياض، وكان يدعى كليتـون بلم إذ قدم ليسلم على جـلالة الملك بمناسبة انتـهاء مهـامه. كان السفـير البريطاني الضـيف الرئيس على مائدة عـشاء الملك التي تمت كالعادة في الهـواء الطلق، إذ جلس المترجم إلى جانبه، لـكن تبادل الأحاديث في مثل هذه الظروف يميل إلى الفتور، ويخيم الصمت على نحو سمج. انكسر حاجز ذلك الصمت عندمـا سألني الملك عن سبب عدم ذهابي إلى الظهـران، فقلت له: «إنني ذاهب إلى هناك في يوم غد». عنـدها قال الملك موجهـاً حديثه إلى السفـير البريطاني: «إن فـيلبي يحب السفـر والتجوال في بلادنا». وأجـابه السفـير بشكل لبق: «نعم. إن ذلك صـحـيح وهو يحب أيضـاً أن يكتب عن بلادكم». فـقـال الملك: «أجل.. ذلك صحيح، لكنني متـأكد بأن الدافع وراء كل كتاباته هو نواياه الطيبة تجاهنا». شعرت بأن كلام الملك كان وبشكل مـؤكد بمثابة شهادة لم ألتمسها أو أستجديهـا. وبعد عودتي من الظهران ظل تصرفه نحـوي على حاله. شعرت بذلك عندما أخذت مكاني المعـتاد في جلسات العشاء التي كانت تقـام في حديقة الناصرية. حدث في إحـدى هذه الأمسيات وبالتحديد في اليـوم الخامس من شهر مارس (آذار) أن كان هناك حـشد كبيـر من أعضاء مجلس الوزراء تم اسـتدعاؤهم من جدة على شـرف ضيفين كـبيرين همـا وزير الخارجيـة السوري ووزير الثقـافة

الوطني المصري. كـان الموضوع السـاخن لحديث تلك الساعـة هو قضـية اتفاقـية التحالف التي تمت مؤخراً بين العـراق وتركيا. ذلك وعلى الرغم من وجود العديد من المواضيع التي كان يتوجب على الحكومة أن تناقشها خاصة بعد فترة الاستراحة وتوقفها عن العمل، مثل مـوضوع العمل الطائش الذي ارتكبته في الظهران والذي دارت حوله آراء وتعليقات متنوعة وذلك على صعيد واقع الحالة الموضوعية، وعلى صعيد الإجراء الذي يمكن أن يُتخذ بحقي.

في ليلة من الليالي حلمت حلماً غريباً مزعـجاً. ولسبب ما لا أستطيع أن أجد ما يفسره قمت بتسجيل رسالة صـوتية إلى أحد أصدقائي في بريطانيا. سمعت في الحلم طرقاً على البـاب ففتـحته لأجد أمـامي رئيس جهاز الأمن السـعودي الذي سلمني بدوره مسدساً وقال لي: إن علي أن أستخدمه خلال يومين، وذلك لأتجنب الإجراءات الصارمة التي يمكن أن تتخذها الحكومة. ففكرت كردة فعل في استنباط الطرق والوسائل التي تمكنني من الهـرب إلى ليفربول عن طريق المساعي الحـميدة التي يمكن أن يقـدمها لي القنـصل البريطاني. استـمريت في مـحاولاتي اليـائسة للتوصل إلى مخـرج من محنتي تلك، لكنني استيقظت فـجأة لأجد أن كل شيء حولي كان على ما يرام. وبعد بضعة أيام تجسد ذلك الحلم لكن على نحو مختلف نوعاً ما وبشكل أقل ترويعاً! ففي اليوم التاسع من شهر مارس (آذار) قام ثلاثة من كبار الرسميين بزيارة رسمية لي للتـحقيق في الأعمال التي قمت بها في الظهران. كان من بين هؤلاء الرسمـيين السيد جمال الحسيني -وهو ابـن عم مفتي القدس- والسيد رشدي ملحس وهو وزير الدولة والسكرتير السـياسي للملك، وكان معهم أيضًـا السيـد عبد الـله بن عثـمان الأمين العـام لمكتب الملك للشؤون الداخلـية. استشعرت من زيارتهم مـوضوعاً شاملاً، لكن السيد جمـال افتتح الحديث بسؤال

وجهه إلي وطلب فيه عما إذا كان بإمكاني أن أعطيهم نسخاً من المحاضرات التي ألقيتها خلال زيارتي إلى الظهران. فأعربت له عن تأسفي لعدم تمكني من تلبية طلبه؛ وذلك لسبب بسيط هو أنني لم أكتب ولا حتى محاضرة واحدة من المحاضرات التي تقدمت بها. وقلت بأن ذلك ينطبق أيضاً على الكلمات الخمس التي أدرجها معدو الحفل في برنامجهم. عندها قال السيد الحسيني: إنه لا بد أنني -على الأقل- كتبت بعض الملاحظات حول ما كنت أزمع قوله. ومرة ثانية كانت إجابتي مخيبة لطلبه. وقلت بأنني لم أدون أي ملاحظات قبل الإدلاء بالمحاضرات، وأنني أدليت بكلماتي بشكل ارتجالي. أوضحت لهم بأن الجماهير التي استمعت إلى حديثي كانت من مختلف فئات مجتمع أرامكو وهؤلاء ليسوا بحاجة إلى معرفة أشياء فنية لكنهم كانوا مهتمين بالتعرف على تجاربي السابقة وعلى التغيرات التي حدثت على مدى الأربعين عاماً التي قضيتها في المملكة، وقلت بأنني تحدثت معهم شفهياً كما أتحدث معكم الآن. وقلت للسيد الحسيني بأنه بإمكانه أن يحصل على مضمون كلماتي من الأخوة السعوديين الذين حضروا تلك الجلسات. طلب السيد رشدي مني أن أذكر بعض أسماء هؤلاء السعوديين. عندها كان علي أن أعترف له بأنني لم أتعرف على اسم أي واحد منهم.. باستثناء شخص واحد ذكرت لهم اسمه. قلت لهم بأنه لم يكن بين هؤلاء الناس أي شخص سبق لي أن قابلته. صُدِم هؤلاء المحققون.. وربما ظنوا أنني كنت أكذب عليهم. لكن طريقتهم في مفاتحتي بالموضوع لم تكن أكثر من مجرد مناورة يراد بها استهلال الموضوع. بعدها شعروا بأن بإمكانهم المباشرة في فتح خط هجومهم المباشر. كانت تعليقاتي المعادية المتكررة حول نشاطات الحكومة سبباً في استثارة عدم رضى الملك، الأمر الذي حمله على تفويضهم إبلاغي رغبته في أن أرحل

عن المملكة. أكدت لهم بأنني سأطيع رغبات الملك وسأنفذها دون أي سؤال، وقلت بأنني أطلب فقط بعض الوقت لحزم أمتعتي وأخذ حوائجي التي تراكمت وتجمعت على مدى ثلاثين سنة من الإقامة المتواصلة في المملكة. وطلبت منهم إعطائي مهلة حتى أعد بعض الترتيبات الخاصة بنقل أفراد أسرتي إلى بلد جديد آخر. ووافقوا على طلباتي تلك دون أي اعتراض أو تردد، وانتقلنا إلى حديث ودي تعلق بمسببات هذا التطور المؤسف. وافترقوا قائلين بأنه كان من الأفضل لو أنني احتفظت بانتقاداتي وأدليت بها على مسامع الملك بدلاً من نشرها على الملأ. كانوا على قناعة بأنني كنت أعمل تحت تأثير نفوذ أجنبي علماً بأنني أكدت لهم، وهم على علم تام بذلك، أنني لم أكن متأثراً أبداً بأي وجهات نظر خارجية، وكنت أتصرف وفق وجهات نظري الشخصية. وأضفت قائلاً لهم: إنه حدث في مناسبات عدة أنني فعلاً عرضت بعض الأمور على الملك وكانت تتعلق بمصالح الشركة التي كنت أمثلها، وحصلت بموجبها على تأكيدات شخصية منه بأن تلك الأمور ستدرس ويتم الاعتناء بها. لكن كان ذلك دون جدوى؛ لأن الرسميين الحكوميين المعنيين لم يكونوا مهتمين بشيء سوى تنفيذ الأوامر التي يتلقونها.

لا بد وأن الجميع يدرك بأن تجربتي كانت فريدة من نوعها، وكان عليهم أن يدركوا أن هناك ثمة استياء عاماً من تصرفات بعض الموظفين. ومع انتهاء هذه الملاحظة انتهى اللقاء بيننا، لكن عندما هموا بالانصراف أكدت لهم أن الرسالة التي أوصلوها لي لم تفاجئني.

تحمل الرسميون السعوديون انتقاداتي لأعمالهم على مدى خمس سنوات تقريباً، إلا أن التطورات الأخيرة التي لها علاقة بقصر الأمير عبدالله أجبرت الأمير عبدالله على عدم تفويت تلك الفرصة وتصفية حساباته معي. احتجوا بطبيعة

الحال قائلين بأنني أخطأت الحكم على ذلك الرجل، وبعدها تركوني بسلام لأعد نفسي للرحيل إلى المنفى.

سبق لي قبل هذه الحادثة بيوم أن تناولت العشاء مع الملك، لكن بعدها لم يحدث لي أن قابلته مرة ثانية. أشرف السيد رشدي ملحس على الآلية التي تتعلق بأمور ترحيلي. وتم الاتفاق من حيث المبدأ على أنه عندما أنتهي من ترتيب أمور حوائجي في الرياض، ستقدم لي الحكومة وسائل النقل الضرورية لنقلي مع أسرتي إلى مكة. وبعد أن أنتهي من حزم حوائجي أو التصرف فيها هناك، كان يتوجب علي أن أتوجه براً قاصداً لبنان، حيث كنت قد قررت أن أستقر هناك دون أن يكون بذهني أي خطط مستقبلية. شعرت بأنه لا فائدة لي من تأخير رحيلي عن المملكة. ونظراً لاقتراب حر الصيف الذي يمكن أن يجعل من أمر السفر براً أمراً غير مريح، علاوة على أنني كنت أتطلع إلى قضاء فترة الصيف في الجبال اللبنانية بدلاً من قضائه في الجزيرة العربية؛ لذا قررت استعجال الرحيل. ولم يستغرق أمر ترتيب أموري وقتاً طويلاً، علماً بأنه كانت هناك مؤشرات واضحة تتعلق بإعادة النظر في ذلك الوضع، والتمحص في نجاعة القرار المتعلق بإبعادي عن المملكة. منعت نفسي وبكل الحرص من الاتصال بأصدقائي -أو حتى أعدائي-. وبعد مضي عشرة أيام من تسلمي لقرار الملك، قدم لي زائران اثنان -وكان واضحاً أنهما كانا على اتصال مع الأمير عبدالله ومع رئيس الوزراء الأمير فيصل على التوالي-. كان كل من هذين الزائرين يشغل منصباً مهماً في الحكومة. ففي الوقت الذي أكد لي واحد منهم أن الأمير عبدالله لا يضمر أي مشاعر عدائية ضدي شخصياً وأنه يأسف لرحيلي، قال لي الآخر: بأن الأمير فيصل يعد المسألة برمتها مجرد خطأ، وأضاف قائلاً: بأنني لن أغادر البلاد، عندها أشرت إلى الرفوف الفارغة، وإلى

منزلي الخالي من الأثاث وكأنني أعرب عن استعدادي للرحيل فور وصول وسائل النقل التي وعدوني بها. بعدها قلت لهم: إنه ليس لدي سبب يحملني على الاعتقاد بأن ثمة تغييراً صادقاً قد طرأ على مشاعر الأوساط التي هي أصلاً مسؤولة عن خلق ذلك الوضع. وأضفت قائلاً بأنه لم تكن لدي أي نوايا للقيام بأي مبادرة شخصية تتعلق بتلك المسألة.

كان الملك في ذلك الوقت في زيارة للطائف لمدة أسبوع، وعندما عاد من هناك في اليوم الثاني والعشرين من شهر مارس (آذار)، كان قد استعرض أفراد القوات العسكرية المرابطة في عاصمة المملكة الصيفية، واستعطف بأن أمر لهم بصرف مكافأة بلغت مقدار راتب شهر لكل واحد منهم.

مرت الأيام بسلام دون أحداث تذكر، وفي اليوم الثلاثين غادر الملك الرياض مرة أخرى ليتفقد التشكيلات العسكرية في منطقة الخرج، وفي صباح اليوم نفسه قدم رشدي ملحس لزيارتي، وحدث أن كان لدي ضيف آخر جاء لينقل لي أخبار اللجنة الفنية التي كانت الحكومة قد عينتها للنظر في الخلاف بين شركة ميتشل كوتس والأمير عبدالله حول موضوع قصره. دار النقاش بيننا على نحو هادئ بشكل عام، ولم أكن أعرف فيما إذا كان قد قدم إلى حاملاً خبراً أو رسالة ما علماً بأنني أطلعته بأن كل شيء كان جاهزاً للرحيل، وبانتظار وسائل النقل التي وعدت بها الحكومة لنقلي مع أسرتي إلى مكة. لم يقل لي رشدي ملحس شيئاً ولم يعاود رشدي زيارتي إلا في اليوم الخامس من أبريل (نيسان) حيث كان الأمر واضحاً في تلك المرة أنه كان مزوداً بتعليمات يمكن أن تفضي إلى انفراج معين. وبعد أن تبادلنا عبارات التأسف على المشاكل وسوء الفهم التي عكرت الجو مؤخراً، اقترح رشدي أنه بالإمكان فض تلك المسألة بروح ودية شريطة أن أقوم

بكتابة رسالة إلى الملك أعرب فيها عن أسفي لسوء التفاهم الذي حصل بيننا إثر فترة طويلة من علاقات الود مع هذا البلد ومع والده ومعه شخصياً. ربما يكون من الفظاظة أن أرفض غصن الزيتون والنصيحة التي قُدمت إلي. وعليه وعدت رشدي بأن أحاول كتابة رسالة على النحو الذي اقترحه لكنها من المرجح أن لا تحتوي على أي اعتذار عن أي شيء قلته أو فعلته. قال رشدي لي وهو في طريقه للخروج، لعلك تعلم أننا لا نريدك أن ترحل.

وبعد مرور يومين أرسلت إلى رشدي رسالة ليسلمها بدوره إلى الملك، وأرفقت مع الرسالة الترجمة الكاملة لها لأتجنب كافة احتمالات سوء التفسير لأي تطورات لاحقة.

جاءت رسالتي على النحو التالي:

«بعد التحية وأسمى التقدير وأفضل الأماني لجلالتكم، فقد انقضى الآن شهر على استلامي أوامر جلالتكم بضرورة الرحيل عن بلادكم. وأنا في الواقع أعددت نفسي لذلك منذ وقت طويل، وأن أفراد أسرتي وحاجياتي على استعداد لإطاعة أوامر جلالتكم فور إصدار تعليماتكم لإعداد وسيلة النقل الضرورية، ولإذن السفر ومستلزمات أخرى. إلا أنه ولهذه اللحظة لم تصدر من قبلكم مثل تلك التعليمات، والآن ومع استعدادي لإطاعة أي أمر يمكن أن يصدر عن جلالتكم، أود أن أعرب لكم أنني آمل أن يكون غضبكم قد تلاشى بخصوص ما كنتم قد اعتبرتموه أخطاء في محاضراتي وتصرفاتي. وأود أن أؤكد لجلالتكم على ولائي لكم ولأسرتكم النبيلة ولبلدكم، ومشاعري الصادقة التي لازمتني منذ أن وصلت أول مرة لهذا البلد في عهد جلالة المرحوم والدكم.

والآن، إذا كنت أفكر وبأي شكل أن أخدم قضيتكم على النحو الذي شهد به جلالة المرحوم الراحل مراراً فإن ذلك ليس طمعاً في أجرٍ، أو لأمل ما في مكاسب شخصية، بل إنه على عكس ذلك تماماً كما تعرف أنت ويعرفه العالم بأسره، سواء في هذا البلد أو في خارجه. كفى ما قد حدث، وإذا كنتم غاضبين عليَّ بسبب أيَّ شيء قلته أو كتبته كنقد لبعض التقصير في العهد القريب، فإنني أعترف لجلالتكم بأن واجبي أملى عليّ فعل ذلك بصفتي صديقاً لشخصكم ولمملكتكم، وإنني لا أنشد شيئاً سوى الازدهار لكم، والتقدم لبلادكم لتكون أنموذجا بين الدول. إنكم ياجلالة الملك تعرفون شخصيتي وميولي منذ عهد قديم، فإنهما كما كانا دائماً مرتكزان على حرية التعبير عن الرأي وحرية الكلمة. فإذا كنت قد أخطأت في أي مسألة فالإنسان ليس معصوماً عن الخطأ. لذا؛ آمل أن تغفر زلتي، أو على الأقل أن لا تشك في حسن نواياي تجاهكم.

هذا ما عندي لأقوله لجلالتكم وأنا على استعداد لانتظار أوامركم وتنفيذها. وفي الختام أرجوك أن تقبل أفضل أمنياتي مع دعائي لله بأن يمن عليك بالازدهار والتقدم إلى الأبد».

بعد أن أزحت هذا الأمر عن صدري، قضيت اليوم التالي أتمشى بين مرتفعات طويق، وعند عودتي علمت بأن رشدي كان قد اتصل بي في المنزل. وفي اليوم التالي قدم رشدي لزيارتي حاملاً جواباً شفهياً من الملك على رسالتي. كان من الواضح أنهم أرادوا مني أن أبقى في المملكة لكن ليس بدون شروط. قالوا إنه يتوجب علي في المرتبة الأولى أن أذهب إلى القاهرة أو بيروت، ومن هناك أنشر إشعاراً رسمياً بسحب كافة انتقاداتي، كما طلبوا مني أيضاً أن أتعهد بعدم نشر أي شيء في المستقبل قبل أن أعرضه على الحكومة لتتم مراقبته.

لم يكن أمامي سوى رد واحد على مثل هذه المقترحات إذ أكدت لرشدي بأنني أفضل الرحيل عن المملكة على أن أقبل مثل هذه الشروط. على أي حال، تقدمت باقتراح قلت فيه إنني مستعد للتوصل إلى تسوية وفق الأسس التالية:

(١) أن تنشر الحكومة السعودية نفسها بياناً تورد فيه أخطائي وتجاوزاتي وأنا بدوري يمكن أن أترك المسألة لحكم العالم بأسره دون أي محاولة مني لا في الرد ولا في الدفاع عن نفسي ضد اتهاماتهم لي.

(٢) أتعهد طالما أنا في المملكة أن أمتنع عن نشر أي شيء يخص المملكة لكنني لن أرضخ لموضوع المراقبة على المطبوعات.

لم أحصل على رد على هذا الطرح لأن الرسميين في القصر كانوا قد ذهبوا إلى بعض الاستراحات في الصحراء ليجددوا المتعة في جمع الكمأ وأزهار الربيع. وأخيراً ظهر رئيس رجال الشرطة على مسرح الأحداث، وكان ذلك في منتصف يوم الثالث والعشرين من أبريل (نيسان). وقال لي بأدب بالغ: أخبرك نيابة عن أمير منطقة الرياض بأن عليك مغادرة البلد خلال أربع وعشرين ساعة. كان جوابي أنني مستعد للرحيل فور توفير وسيلة النقل الضرورية لي ولأسرتي. ولسبب ما حدث اضطراب وتغيير على الخطة التي اتفقنا عليها أصلاً والتي تقتضي أن أتوجه أولاً إلى مكة لجمع ممتلكاتي من هناك. وأخبرت بأن علي أن أتوجه مع أسرتي وحاجياتي إلى سوريا عن طريق الأردن سالكا طريق خط التابلاين. أنا شخصياً لم أمانع على ذلك باعتبار أنني رغبت دائماً في مشاهدة ذلك الخط الذي ينقل النفط السعودي إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، لكنني رفضت أن آخذ العائلة معي لأنه كان لنا حاجيات في مكة، وكان عليهم أن يجمعوها أو يتصرفوا فيها طالما أننا

مازلنا موجودين في المملكة. وكان من المقرر أن يجتمع شملنا بعد ذلك في لبنان.

وبعد بعض الشيء من الاحتجاج والتردد وافقوا على طلبنا، وفي عصر يوم الخامس عشر من أبريل (نيسان) ودعت أسرتي التي كانت الدموع تملأ أعينهم جميعاً وغادرت الرياض إلى الأبد.

كانت الرحلة من أمتع التجارب التي مررت بها في المملكة العربية السعودية، وشعرت بتلك المتعة وأنا أطوي رمال الصحراء ووهادها. وضعت الحكومة تحت تصرفي شاحنتين سعة كل واحدة منهما سبعة أطنان لكنها لم تحمل سوى نصف طن من أمتعتي التي كانت في معظمها من الكتب والصحف. وأنا قدت بدوري سيارتي "لاندروفر" وكان معي دليلان من قبيلة مطير. وفي عصر اليوم الأول من الرحلة حدث خلل في محرك سيارتي وواصلت بقية الرحلة في إحدى الشاحنتين. كانت الشاحنتان لشخصين مسيحيين من مدينة دمشق، وكانا يقودانهما، وكانا قد قدما مؤخراً إلى الرياض محملين معهما فاكهة وخضاراً من سوريا. وكانت أجرة الشاحنة الواحدة ألفي ريال لقاء تلك السفرة التي بلغ طولها ألفي كيلو متر. واعتادت تلك الشاحنات أن تعود إلى سوريا إما فارغة أو فيها حمولة بسيطة.

سيطرت فكرة الوصول إلى دمشق بالسرعة الممكنة على أحد السائقين ليتمكن من العودة بحمولة أخرى إلى الرياض. كان همهما أن يحققا رحلتين في الشهر الواحد على مدار العام باستثناء شهري الحر يولية وأغسطس (تموز وآب). كانا يواصلان السير ليل نهار وخاصة في الليل للاستفادة من برودة الطقس. وكانت فكرة النوم لا ترد على بالهما إلا في فترات متقطعة عندما يتوقفان لتناول طعام مثل الجبن والزيتون وأحياناً فنجاناً من الشاي أو القهوة. كان همهما الوحيد جمع

المال؛ ولذلك كانا يعمـلان مثل العبيـد. كان ربحاً صافيـاً من الرحلة الواحدة قد يصل إلى ألف ريال أي ما يـعادل مئة جـنيه إسترلـيني. وكانت مئـات الشاحنات تعمل على الطريق المؤدي إلى الرياض. وكـانت ملكية الشاحنات تعـود إلى شركة الدورادو ولافينتـاين لنقل الفاكهـة والخضار الرخيـصة من سوريا ولبنان لتـباع في العاصمـة السعودية إلى الأمراء والمتكسبـين بعشرة أضعاف سعـرها في بلد المنشأ. كانت مـهنة مربحة جـداً كرس المخلصون لهـا جهدهـم بشكل يفوق في تعصـبه تعصب السعوديين أنفسهم للدين الإسلامي في ذروة حماسهم للواحد الأحد.

وفي فجر اليوم الثاني كنا قد اجتزنا رمال صحراء الدهناء وانعطفنا نحو الشمال بمحاذاة الطرف الشـرقي لتلك الرمال إلى أن وصلنا في عصـر ذلك اليوم إلى خط (التابلاين) الذي يبلغ امتـداده حوالي عشرة كيلومـترات بدءا من نقطة انطلاقه في القيصومة حيث تسلم شركـة أرامكو منتجاتها من النفط إلى السلطات المسؤولة عن ذلك الخط تحت مراقبة دقيقة وحرص شـديد من قبل الجباة السعوديين العاملين في قطاع الدولة. انحصـر عمل هؤلاء الجباة في تسـجيل قيمـة كل جالون من النفط تصبـه الشاحنات في خط التـابلاين ونقل تلك المعلومات إلى الجـهات الحكومـية السعـودية. وكان خط النفط ذلك يحـمل النفط ليصب في نهايـة المطاف في ميناء صيدا.

كنا في المساء قد وصلنا إلى آبار قرية رماح حـيث كان هناك مركز الشرطة يقع على الطرف الغربي من صحراء الدهناء، وقضينـا تلك الليلة على بعد بضعة أميال خلف تلك النقطة وبالـتحـديد على طرف الشريـط الرملي. وبعد صـلاة الفجـر ألححت في طلبي في أن يعد السائقـان الشاي لنحتسيه قبل مواصلة مـسير النهار. واقتـرح السائقان أن يواصلا المسـير ليل نهار دون توقف لأن الطريق أمـامنا أصبح

معبداً. وخيم على جو العلاقة بيننا شيء من التمرد والعصيان خاصة عندما أفصحت عن رغبتي في التوقف للراحة أثناء الليل مستنداً بذلك على خبرتي في السفر في مجاهل الصحراء. تبادلنا الكلمات القاسية والشتائم ولكنني في النهاية فرضت عليهم ما كنت أريد. وذلك ما اعتدت أن أفعله في مثل تلك الظروف. أعددنا طبقاً شهياً من الرز المطبوخ بالسمن، وكان لذلك الطعام دور في تهدئة خواطر رفاقي في السفر. كانت مناطق الصحراء التي مررنا بها جرداء ولم نجد أثراً لخروف يمكن أن نحسن بلحمه من طعم الرز.

يمكن أن يكون الاستمرار في سرد تفاصيل هذه الرحلة مضجراً لكن بالمختصر سارت بنا العربات ساعة تلو ساعة على امتداد سكون الصحراء، وكان خط أنابيب النفط يتلوى على يسارنا مثل الأفعى. وكنا أحياناً ندخل من نفق لنخرج من الطرف الآخر، كما كنا أحياناً نسير فوق جسر حديدي منصوب فوق حوض وادٍ جاف. وكنا بين الحين والآخر نتوقف عند نقاط التفتيش حيث كان رجال الشرطة يدققون في أوراق العربات المارة. وفي جوار نقاط التفتيش كانت هناك آبار ارتوازية يتزود الشرطة منها بالماء.

أما في رفحا وبدنة وطريف، فشاهدنا محطات ضخ إلا أن تلك كانت قرى تشير إليها الصحف السعودية على أنها مدن وصلتها الكهرباء وفيها مكيفات تبريد وبعض وسائل الترفيه الأمريكية الصنع، وكانت جميعها وسط صحراء حقيقية. وكان في كل قرية من هذه القرى مهبط للطائرات ليؤمن تواصلها مع العالم الجديد الذي انبثقت عنه. وحدث مصادفة أن كنت موجوداً في طريف عندما هبطت طائرة قادمة من الظهران وعلى متنها رجال ونساء وأطفال أمريكيون، وكانوا في طريقهم إلى بيروت لقضاء عطلة في الملاهي والأندية الحضارية. وهنا، كما كانت

الحال في مناطق أخرى مررنا بها، استضافني المشايخ السعوديون ومعظمهم من معارفي وأصدقائي القدامى. نزلت في ضيافتهم وكأنني أمير في مهمة حكومية وليس كخارج عن القانون في طريقه إلى المنفى.

أما في بدنة وهي المركز الرئيس لإدارة التابلاين تم استبدال البدويين اللذين كانا في صحبتي بمرافق عسكري ظل معنا حتى الحدود. تركنا خط التابلاين ووصلنا إلى طريف، وسلكنا طريقاً عبر المدينة باتجاه الحدود الأردنية ووصلنا إلى نقطة الجمارك في منطقة (٤٤) حيث يلتقي خط نفط حيفا -كركوك ووجدنا أنفسنا مرة ثانية نسير على طريق معبد. واصلنا السير إلى أن وصلنا إلى شعب خال من الماء وهناك شاهدنا ركاماً من الحجارة تدل على أن تلك المنطقة كانت نقطة الحدود السعودية الأردنية. كان من المفروض عند تلك النقطة أن تنتهي مهمة العسكري الذي كان برفقتنا؛ ولذلك أعددنا جلسة لوداعه وأخذْتُ صوراً للسيارات ولذلك العسكري ولكومة الحجارة التي ترمز إلى نقطة الحدود. كما التقطنا صوراً للصحراء التي بدت خلفنا وكأنها محيط هادئ لا معالم فيه. غادرنا العسكري السعودي تاركنا نواجه مصيرنا. جلت بنظري لآخر مرة على امتداد البراري التي قضيت فيها أربعين عاماً واستدرت عنها دون أن أذرف أي دمعة باحثاً عن كرم الضيافة في ديار جديدة كان قد سبق لي أن زرتها في السنوات الخوالي، إذ ما زالت الغشاوة على عيوني لتمنعني من معرفة الأشياء على حقيقتها لكنني على الأقل نفضت غبار الصحراء العربية من على حذائي.

كان ذلك اليوم التاسع عشر من شهر أبريل (نيسان) من عام ١٩٥٥م وكنا قد قطعنا مسافة ألف ومئة كيلومتر بدءاً من الرياض في أقل من مئة ساعة بما فيها فترات التوقف، أي أن سفرنا الفعلي بلغ أربعين ساعة بمعدل ٧٢ كيلو مترا في

الساعة. انتهت آخر رحلة جديدة لي في الجزيرة العربية وراقبت بشغف كل معالم وأحوال الامتداد الشاسع لتلك الأرض القاحلة التي تغيرت معالمها عما شاهدت أثناء الرحلات الأولى التي قمت بها. ربما شاهدت حوالي ستة من الظباء في حين كان يمكن أن يكون هناك الآلاف منها. شعرت تلك الظباء فقط أنه من المستحيل الاستمرار في العيش بجوار المقيمين في هذه النقطة. كما أننا نادراً ما شاهدنا طائر الحباري، والسبب في ذلك يعود جزئياً إلى الشتاء القارس الذي كان قد انتهى دون سقوط الكثير من الأمطار. أما طائر الزقزاق فكانت أعداده قليلة جداً ولا تذكر، أما طيور السنونو فشاهدناها بأعدادها الطبيعية وهي تهاجر شمالاً بحثاً عن مناخ ألطف. وكانت الأراضي خاصة في منطقة الدهناء والصمان قفراء في معظمها باستثناء مناطق قليلة يكثر فيها العشب والكلأ.

رافقتني هذه المشاهد، كما أن الإحساس الطيب بالحرية بدأ يطربني ونحن في طريقنا شمالاً بعيداً عن نمط الحياة التي كانت من نصيبي مدة طويلة من الزمن. وأثناء قطْعنا للمسافة المتبقية من الرحلة أجريت الساعات الطوال بأغانٍ رددتها بصوتي. كانت مجرد ترنيمات أخذت شكل السونتيه عمدت إلى تدوينها في الأمسيات التي خيمنا فيها. أخذت تلك الكلمات شكل القصيدة التي تتألف من أربعة عشر بيتاً وكانت على النحو التالي:

ابتسمت له الأعشاب والكلأ في الصحراء وهو

يسير بسرعة غير مألوفة باتجاه شمال الأرض القفراء

اعتاد أن ينظر إليها بنقاء وهدوء

لم يتعرف البدو الرحل على طعم أي شيء سوى حليب الجمال

وطعم الجراد أثناء تجوالهم بقطعانهم في المراعي الخضراء

كل ما على شفاهي من البسمات كانت بسمات المرارة

وها أنا أغادر الآن وقد أنجزت كل خدماتي

وأتممتها على أكمل وجه وسط عراك ونضال

لكنها لم تلق بظلها على حياته الخاصة

ليكن الخزي الأبدي من نصيب أولئك الذين تسببوا في إبعاده

لكن اسمه سيبقى لامعاً غير ملطخ بالشبهات

تعرف على الصحراء خلال أيام نضاله

أما في أوقات الاضطرابات: فشهد الحماس الديني

الذي ولد القناعة الكبرى بأن الكل سيحاسب في القبر

وسيؤول مصيرنا إلى الحياة الأبدية

من أجل تلك الحياة ناضل الرجال يحذوهم الأمل الكبير بالفوز

استمرت تلك الآمال إلى أن حدثت المعجزة فانكشف

الغطاء عن معين الثروة لتلتئم بها المأساة التي

ولدت مع آدم وحواء

كنت أنا من فتح البوابة السرية لِيُطْلع الملك وأصدقاءه على

المكنون الذي لا نهاية له

ومن فضل الله من خيراته المدفونة تحت الأرض يتم تعقب

وقنص لعنة الموت

وليتولد جحود الجميل لفضل الله وسط التدافع الجنوني

لبني البشر للفوز بالمال والثروة.

obeikandl.com